ابن المعتز والقمر

اقتباس من كتاب عبد الله بن المعتز

تحت الطبع

لعبد العزيز سيد الأهل

عبد الله بن المعتز أشعر أبناء الخلفاء من بني هاشم ومن أبرع أنشاء القرن الهجري الثالث ، تفرغ للشعر يصنعه فهتف به ثلاثين عاما من عمر لم يعد خمسة وأربعين ، وانحنى على الوصف والتشبيه انحناء رجل رخي البال موفور النعمة مخدوم ينفق وقته كله لهوا وتسلية وسبحا وراء التشبيه يطرده ويتصيده ، والتشبيه يخفض له رقابه ويملكه من عنانه حتى غلب عليه وصار جزءا من حياته الشعرية لا يتخلف ولا ينفصم عنها .

ومن أبرع تشبيهاته تلك التشبيهات التي تضرب في إثر المرئي وتدور حوله تستقصي وصفه وترسم منظره في كل وضع ومن كل ناحية ، في إجادة وظرف وكلام سبط يجري في جنس ما هو بسبيله من الرشاقة والوضوح ولطف المزاج ورقة أولاد الملوك .

ولعل القمر كان من أوفر مرئيات ابن المعتز حظا بشعره ، وأظفرها بترقبه وترصده ، ولم يلحق به فيه شاعر ممن تعرضوا لوصف السماء كافة ، ونخص

منهم أعلام المتأخرين كابن الرومى وكشاجم والميكالى والعسكرى والوأواء وابن طباطبا .

وليس القمر أوجد ما تعرض له ابن المعتز من كواكب السماء ونجومها فاستقصى اتجاهاته وأشكاله فشبه به وشبه له ، فقد وصف كل ما يعرف من نجوم وشهب وكواكب ، وفيها له تشبيهات منقطعة النظير وإنما عرضنا هنا لقمره على سبيل المثال .

وكم رأى ابن المعتز طلوع الشهر وإهلال الهلال ! ولكن هلال العيد أبعث الأهلة للفرح والانشراح لما يحفل من بشرى الإفطار وتحليل الممنوع وإباحة المكروه وهو إن بعث الفرح فى قلوب الناس فبعثه للفرح فى قلوب الشعراء أكثر ، وفى قلب ابن المعتز الأمير أكثر من قلوب الشعراء ، فلا غرو أن هزه هلال شوال فهلل وتهافت على ذكر الشراب والدعوة له والزورق والعنبر فقال :

أهلا بفطر قد أنار هلاله الآن فاغد على الشراب وبكر

وانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

أما فى غير شوال فهو يبدو صغيرا ضئيلا ، ويبدو فى عين ابن المعتز أصغر وأضأل حين يكشف بصغره وضآلته ما يريد ابن المعتز أن يسبل الظلام عليه أستارا حالكة فلا تنفذ اليه أعين الرقباء ، فيقول واصفا ضخامة إيذائه مع هوان شأنه .

وجانى فى قميص الليل مستترا معجل الخطوة من خوف ومن حذر

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر

حتى إذا كان القمر ابن ليلتين صوره فى قوله :

كأنه ابن ليلتيه من سهده الدائم القديم

فخ بوسط السماء ملقى ينتظر الصيد للنجوم

ثم يدرج القمر نحو الكمال ويخلع على الدجا فى الآفاق خلعا من البياض وسرابيل من البهاء فيخيل للشاعر أن النجوم تحف به احتفاء وهو يتقدم فى مواكبهن ملكا عزيزا فيقول :

قمر بدا لك مشرقا فى ليله حسر الدجا أذياله عن ذيله
خلعت على الآفاق من أنواره خلع البياض فأومضت فى ليله
وإذا تقدم فى النجوم حسبته ملكا تسير مواكب من حوله

فاذا كان القمر فى التمام وغض ضوء جبينه من أضواء النجوم وتراءى وجهه ضاحكا فى دجلة الراقصة المصفقة حول سميرية ابن المعتز وهى تشق به صفحة الماء قال :

البدر يضحك وسط دجلة وجهه والماء يرقص حولنا ويصفق
فكأنه فيها طراز مذهب وكأنها فيه رداء أزرق

أو قال فى ليلة من ليالى السرى :

ومصباحنا قمر مشرق كترس اللجين يشق الدجا

وما أجمل أن يتقابل قرص البدر وقرص الشمس فى صبح نصف الشهر ، ذلك أبيض ناصع يغرب وهذا أحمر ملتهب يشرق ، وقد بات ابن المعتز طول ليلة النصف سهران فلما طلع عليه هذا المنظر والا يفارقه بعد خمار الصبوح غنى يقول :

ياليلة ما كان أط يبها سوى قصرى المدى
أحييتهـا وأمتهـا وطويتها طى الردا
حتى رأيت الشمس تد لو البدر فى افق السما
فكأنها وكأنه قد حان من خمر وما

ثم يروقه هذا المنظر فينحنى عليه يصوره مرة أخرى فى صورة نهار ذى يدين قد أمسك بالشمس فى يمينه ورفعها اعتزازا بها لعلوها وملل بالقمر فى شماله يرميه لرخصه وقلة منه فيقول :

نظرت فى يوم لذة عجبا وافى به للسعود مقدار
يقابل الشمس فيه بدر دجا يأخذ من نورها ويمتار
كصيرفى يروح منتقدا فى كفه درهم ودينار

ويعود على القمر يشبهه بالدرهم قائلا :

والبدر فى أفق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء

فإذا طلع القمر على السفح الآخر للشهر القمرى وسله النقصان وانحدر إلى الزوال لم ير فيه ابن المعتز من الجمال ما كان يراه فى طفولته وصباه واكتمال شبابه فيعدله من التشبيهات ما يشبهه وهو كهل وهرم وموف على الفناء ، ولقد أرق الأمير ذات مرة حتى ظهر القمر فى أخريات الليل فقال :

ماذقت طعم النوم لو تدرى كأنما جنى على جمر
فى قمر مسترق نصفه كأنه بحرفة العطر

حتى إذا قرب القمر من ليالى المحاق ولم يطلع إلا والليل موشك على الزوال ارتجز قائلا :

إذا الهلال فارقته ليلته بدا لمن يبصره وينعته
كهامة الأسود شابت لحيته

ولقد يشبه ابن المعتز بالهلال فيجيد الصنعة أيضا كقوله يمدح :

مر بنا تشرق الطريق به فى قد غصن وحسن تمثال

خلته والعيون تأخذه من كل فج هلال شوال

وقوله يصف الخمر وقد أسيلت من دنها مائلة فى قوس طرفه فى فم الدن وطرفه الآخر فى فم الكأس:

تخرج من دنها وقد حدبت مثل هلال بدا بتقويس

وربما كانت الصنعة فى هذه التشبيهات وغيرها والرياضة عليها رياضة مقدرة فى رسم الصورة والمظهر أكثر من أن تنطق فيها الروح وتتكلم ولكنه اتجاه شعرى على كل حال وصنعة انفرد بها ابن المعتز فلم يلحق به لاحق

ومن العجيب أن شعراءنا المعاصرين قد هجوا القمر لما يعين نسور الجو على العدوان فى حربنا الضروس هذه، وكانوا يعدون ذلك ابتكارا جديدا لم يسبقوا به ولم يفطن له أحد قبلهم، ولكن ابن المعتز سبقهم الى هذه النقمة عليه حين كان يثير عليه بعوض بغداد التى شغل عنها بسر من رأى فقال:

وبات كاسر أعدائه إذا رام قوتا من النوم شذ

تجزره شررات البعو ض فى قمر مثل ظهر الجرذ

ثم يشتد حنقه على القمر فيهجوه شاكيا متململا ويتمنى لو نال منه تشبيهه ولكنه لا يستطيع أن ينال منه كما تحذر اليدلمس جلد الابرص اتقاء المرض وخيفة العدوى، وما أجدر شكوى ابن المعتز من القمر أن تكون شكوانا منه فنقول كما يقول:

ياسارق الأنوار من شمس الضحا يامشكلى طيب الكرى ومنغصى

أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلح بهقا كلون الابرص

وهكذا دانت صنعة تشبيه المرئى لابن المعتز كما وأتاه الطبع ، فكان جديرا بادعاء زعامته اذ قال «إذا قلت كأن ولم آتِ بعدها بالتشبيه فض الله فمى» وقد أقره محترفو الصنعة من بعده على هذه الزعامة فقالوا «اذا رأيت كاف التشبيه فى شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان»

عبد العزيز سيد الاهل